كلمة التحرير

دور المفكرين والمثقفين في بناء منهجية علمية للتعامل مع الأَزمات

عماد الدين خليل/ رئيس التحرير*

إنها من أكثر المراحل التي اجتازتها الأمة تمزقاً وتحديات ونزيفاً... ولكنها ليست الأولى ولا الأخيرة. فلقد عصفت بالأمة عبر تاريخها الطويل عواصف لا تقل هـوْلاً، ولكنها عرفت كيف تجتازها. ولا بدّ –إذن– من تداعي مفكري الأمة عبر اللحظات الراهنة وبذل ما بوسعهم من جهدٍ لتشخيص الداء وتحديد الدواء. ودائماً كان الفكر، بتعامله الفاعل مع الثوابت العقدية والتشريعية لهذا الدين، هو نقطة الانطلاق في البحث عن الحلول.

والآن فإن جملة من العوامل التي سحبت الأمة عبر لحظاتها الراهنة، إلى الوراء، تقابلها جملةٌ من البدائل والشروط التي إذا أحسن التعامل معها، فإنها قد تساهم في تعديل الوقفة الجانحة وإنقاذ المركب الذي انفتحت فيه الثغرات وتسرّب إليه الماء.

فلنبدأ بالتأشير عليها بالإيجاز المطلوب وقدر ما تسمح به هذه الصفحات التي أريد لها أن تكون المقال الافتتاحي لمجلة (الفكر الإسلامي المعاصر) في عددها المائة.

1. غياب الوعي بقوانين الحركة التاريخية وسنن الله العاملة في التاريخ، أي بمبادئ الفقه الحضاري وتأسيساته

هذا الغياب الذي قاد أجيال المسلمين المعاصرة إلى الشلل والإحباط وعدم القدرة على تبين معالم الطريق التي تخرجهم من الهوّة التي أوقعوا أنفسهم فيها. إن كتاب الله وسنة

---

* خليل، عماد الدين (2020). **دور المفكرين والمثقفين في بناء منهجية علمية للتعامل مع الأَزمات**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 25 العدد 100، 5-19. DOI: 10.35632/citj.v25i100L.5063

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي2020 ©

رسوله ﷺ يقدمان شبكة خصبة من هذه القوانين والسنن تلقي الضوء على مبادئ الحركة التاريخية إيجاباً وسلباً، وتعلمنا أن سبل الخروج من المحن التي تحيق بنا ليست مستحيلة، بل هي قاب قوسين أو أدنى، فقط إذا أحسن الإصغاء جيداً إلى هذه القوانين.

هنالك –على سبيل المثال– المقطع الخاص بالمداولة التي تعني ألّا ديمومة لأية حالة قد تجد الأمة تعاني من ويلاتها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ...﴾ [آل عمران: 137–140]. وهنالك الآية التي تؤكد أنه ما من دولة أو إمبراطورية أو حتى حضارة، قدّر لها البقاء، كلها أتى عليها المقص الإلهي وافترسها وأخرجها من التاريخ... كلها على الإطلاق... وأن الذي يحكم العالم ليس هذا الزعيم أو الطاغية أو ذاك، إنما هو الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد: 41].

هنالك مبادئ التغاير والتدافع والتعارف: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ...﴾ [هود: 118–119]. ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13]. تلك المبادئ التي تبيّن استمرارية الحركة التاريخية إلى أن يقوم الحساب، والتي تتغاير فيها الأمم والجماعات والشعوب، وتصطرع، ويتميز بعضها عن بعض... وهنالك شبكة من الأحاديث النبوية التي تحكي عن عوامل نهوض الدول والحضارات، وأسباب تدهورها وسقوطها... وكلها تمنح الأمة في لحظاتها الراهنة إضاءاتها الكاشفة حول سبل الانبعاث والنهوض وتجاوز عوامل الانكسار والهزيمة... والمهم أننا بوعينا لهذه الحقائق قد تجاوزنا الإحساس بالإحباط، وشمّرنا عن ساعد الجد لكي ننهض من جديد مستمدين من هذه السنن والقوانين القدرة على الفاعلية والعمل.

ثمة حاجة ماسّة من المفكرين إلى تفحّص دلالات فِقْه السُّنن الإلهية كإطار علمي منهجي للمسلم أثناء تعامله مع الأزمات، ودور هذه المنهجية في بناء التفكير الإسلامي

المعاصر؛ ذلك لأن جزءاً من التفكير الإسلامي اعتمد كلياً على مفهوم النُّصرة والعطاء الرباني المطلق، دون حاجة إلى تفعيل منحة الاستخلاف والتعمير، التي تعني بصورة ما تطبيق الإنسان المبدأ الماثل في قوله عز وجل: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى". لذا نحتاج إلى هذا الوعي بأن فِقْه السُّنن الإلهية ضرورة معرفية؛ إذ هي –على حد قول الدكتور عزمي طه– منظومة من النواميس، وضعها الله الخالق وقدرها تقديراً، فجاءت ثابتة، مطردة، متكاملة، متسقة، وجعلها سبحانه أمثال هداية للناس وعبراً، لكي تسير الحياة الإنسانية بكل جوانبها (الفردية والجماعية والحضارية) وفقاً لها بلا إكراه، بحيث يؤدي تطبيقها إلى نتائج إيجابية فيها الخير، وإهمالها إلى نتائج سلبية فيها الاضطراب والشر. وينبغي للمفكر المسلم أن يتعامل مع هذه السُّنن تعاملاً علمياً متكئاً على الأدوات المنهجية التي نتلمسها في القرآن الكريم، وعلى الخبرة البشرية المعاصرة، التي تُمثّل ضالة المؤمن.

والفقه الحضاري يتعالق مع ماهية النواميس (السُّنن) التي تقدّم لنا أمثلة واقعية من حياة الأفراد والمؤسسات والشعوب والثقافات المختلفة، بما يهدف إلى العِبرة من التاريخ، للحيلولة دون الوقوع في المقدمات الباطلة التي رسمتها تلكم الحضارات الهالكة، ومحاولة البناء على الهدي الرباني الماثلة في صراط الذين أنعم عليهم. ليطمئن الإنسان وهو يمارس نشاطه الكوني بأن النتائج متسقة اتساقاً تاماً مع المقدمات، وليتأكد للإنسان أن دورة الحياة هي دورة متصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وبأن بناء الإنسانية ذو اتجاه أفقي وعمودي في الوقت ذاته. ولعل فاتحة النشاطات المنهجية في هذا الاتجاه أن يستقرئ المفكرون أوجه السُّنن الإلهية كما وردت في القرآن، ويتبع هذا الاستقراء تفسير وتحليل علمي ومعرفي، ومن خلال هذا التحليل سيتلمّس المفكرون أوجه العلاقات بين الأسباب والمسببات، وعناصر القوة والإخفاق، وعلاقة الزمان بالمكان بالفكرة بالإنسان، إلخ من تلكم التحليلات العلمية التي من شأنها أن تُبلور في ذهن المفكر المسلم نوعاً من الاستشراف والتنبّؤ العلمي القائم على استقراء شامل وتفسير سليم، ليصل في نهاية المرحلة إلى وضع البرامج والمشاريع العلمية والبحثية القادرة على التحكُّم وضبط إيقاع نشاطه الكوني والإنساني، وهو ما يمثل بالضبط مفهوم التسخير والإعمار. وهذه العلمية

الماثلة في طبيعة التفكير في السُّنن وماهية السُّنن ذاتها هي التي تجعل التفكير السُّنني نقيضاً طبيعياً ومنطقياً للتفكير الفوضوي، وبذلك فهو تفكير استراتيجي؛ وهي التي دفعت ببعض العلماء والمفكرين إلى وصفها بالقوانين؛ فذا محمد عبده يقول: إنّ "لله في الأمم والأكوان سُنَنَاً لا تتبدَّل، والسُّنن هي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون، وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويُعبَّر عنها بالقوانين."[1]

2. التعامل الخاطئ مع مطالب اللحظة التاريخية:

علينا في ضوء ما سبق ألّا نتعامل بالمسطرة الصارمة مع الوقائع والمستجدات والتحديات، بل أن نستجيب بدلاً من ذلك لمطالب اللحظة التاريخية، وأن نفتح آذاننا التي غطّاها الشمع الأحمر على هذه المطالب، فنمارس ما تتطلبه بالتحديد، بدلاً من أن نضرب ذات اليمين وذات الشمال على غير هدىً. فحيثما كانت اللحظة التاريخية تتطلب نشاطاً تربوياً هادئاً، أدرنا ظهورنا باتجاه العمل الجهادي، وحيثما تتطلب الأمر وعياً سياسياً أدرنا ظهورنا باتجاه الوعظ والتعليم، وأدرنا ظهورنا لهذه التحديات واقتحمنا الميدان ونحن لا نملك البرامج ولا القدرات على اجتياز المطلوب، فسقطنا وتهشمت عظامنا. وهكذا لم نعد نعرف على وجه اليقين ما تتطلبه اللحظة التاريخية، فضِعْنَا... وكان علينا أن نتعلم من رسولنا المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) الذي كان بفقهه النبوي العميق يعرف كيف يتعامل مع كل حالة بما تتطلبه تماماً، صبراً على تحمل الأذى، وكف الأيدي عن رفع السلاح... وجهاداً بالسيف، وفي الوقت ذاته إقامة علاقات السلم ضمن منظور العلاقات الدولية، وتصالحاً مع المشركين، ونشاطاً دبلوماسياً، وانصرافاً إلى بناء المسلم بالعقيدة، ...إلخ. لقد كان من أهم سقطات العقل المسلم في العصر الحديث هي غياب هذا المنظور، وعدم الوعي بأهمية فقه الواقع وفقه الأولويات وفقه الموازنات، وإقفال العقول والقلوب على مطالب اللحظة التاريخية وطبيعة تحدياتها. لقد نزفنا عبر هذا التخبط كثيراً وآن لنا أن نوقف هذا النزيف.

[1] عبده، محمد. **الإسلام بين العلم والمدنية**، القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011م، ص83-84.

إن تأطير هذه الأنواع من الفِقه (فقه الأولويات والموازنات والواقع) ضرورة معرفية للمفكر المسلم، لا سيما أن فِعْل الإصلاح الفكري ليس وصفة طبية جاهزة يأخذها المسلم فيتعافى تلقائياً، بل هي سيرورة تاريخية تأخذ بعين الاعتبار المنحنيات الحضارية والتثاقف المستمر، وتحديد طبيعة العلاقات مع الآخرين، وقدرة المسلم على إحداث الفعل بين النص والزمان والمكان. وهذا يعني أن الواقع في تغيّر مستمر، وأن الأفكار تحتاج إلى تفاعل دائم مع الذات ومع الآخر، وأن النتاج الصحيح للفكر الإصلاحي ماثل في قدرتنا على التشابك مع هذا الواقع كما هو وفي اللحظة التاريخية ذاتها، رغبة في أن يكون الواقع كما ينبغي له أن يكون لا كما هو ماثل الآن؛ أي قدرة المفكر على إحداث التغيير والتأثير في الواقع. وهذا يدعونا إلى الموازنة بين متطلبات اللحظة الراهنة، والتفكير الاستشرافي المستقبلي.

والوفاء بمطالب اللحظة التاريخية يكشف عن حالة تنظيمية للعقل وللتفكير؛ إذ تفتّق فعاليات الإنسان الفكرية والعملية، وتعمل على تنظيم أدائه وفق منهجية ضابطة في التفكير والبحث والسلوك؛ وتساعده على تفحّص علاقة الأهم بالمهم وبالأولوية؛ فثمة ما هو مهم ولكنه ليس أولوية، وثمة ما هو مهم وأولوية في الأصلاح، وهناك ما هو ليس بمهم ولا أولوية، وهكذا تنتظم صور التعالقات، التي تعكس صورة التفكير في مرحلة الأزمات خاصة.

3. الانفكاك عن الالتحام بمطالب الخطاب القرآني والنبوي:

لقد جعل هذا الخطاب منّا الأمة الوسط الشاهدة على مسيرة البشرية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [البقرة: 143]. فلما انفككنا عنه وحفرنا بيننا وبينه خندقاً عميقاً، صرنا إلى ما نحن عليه من ضعفٍ وتفكك وهوان. إنّ العودة للالتحام بهذا الخطاب ستضع خطواتنا على طريق الخلاص، ليس خلاصنا فحسب، بل خلاص البشرية عامة، وكما يقول روجيه غارودي: "إن مشكلة العالم المعاصر كونية، ولا بدّ أن يكون الجواب كونياً، والإسلام هو هذا الجواب".

لقد صنعنا (الإنسان بصورة عامة) عبر تاريخنا الطويل سوءاً كثيراً، ومارسنا خطايا لا تعدّ ولا تحصى، وآن لنا أن نتلقى العقاب: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ...﴾ [النساء: 123] ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: 165]... جل ممارساتنا الخاطئة كانت مضادة لما أراده الخطاب القرآني والنبوي حيث نجد هناك بدائلها العادلة الصحيحة التي كان يمكن أن تقودنا إلى القِمة... ولكن!

إنّ من أهم ما ميّز التفكير الحضاري الإسلامي أنه لا يقيم قطيعة بين النص (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة)، والواقع. ولم ينبذ حركة الفعل التراثي (الذي هو اجتهاد في فهم النص) بوصفه فعلاً ماضوياً عفى عليه الزمن، وانقضت لحظته التاريخية؛ ولم يتعالَ على تراث الأمم الأخرى وخبراتهم وحِكَمِهم، رغبة في نقاء الهوية والتفوق الثقافي؛ ولم يهدم البنيات العلمية والمعرفية والثقافية والمنجز الحضاري الآني من تشريعات وأنظمة وتطبيقات وهياكل ونظريات، ليبدأ منذ اللحظة الصفرية لتشكّل المعرفة. بل واءم بينها وبين المبادئ والأفكار والقيم العليا للإسلام، متخذاً من هذه المبادئ والأفكار والقيم معياراً للحُكم على أي مستجدّ؛ فيجمع المفكر بذلك بين العلم والفقه والحكمة. ولعل هذا ما كشف عنه الطبري في التفرقة بين الحِبر والربّاني؛ إذ يقول: "الربانيون فوق الأحبار؛ لأن "الأحبارَ" هم العلماء، و"الربّاني" الجامعُ إلى العلم والفقه، البَصرُ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم."

إن الخلل الفكري والمنهجي الذي وقع فيه بعض الذين تصدوا لعمليات الإصلاح، أنهم عاشوا متلازمة "الهدم والبناء"، دون الوعي بمقاصد القرآن من التدرُّج في تطبيق الأحكام وتنزيلها على الواقع، وتغيرات الزمان والمكان، وما يحيط بهما من مؤثرات داخلية وخارجية. لذا كان لزاماً على المفكرين أن يبدأوا من اللحظة الحاضرة والتفاعل معها ضمن مسارين: المسار الاستردادي؛ من خلال استحضار الإرث الحضاري للمفكر المسلم من قيم ومبادئ وأفكار ومحاورة النظريات والمبادئ بناء على معاييره، وهنا نحافظ على المكنز

المعرفي الإسلامي في نسق متصل من التطوّر؛ والمسار الإنساني؛ من خلال بناء النظريات والهياكل والتطبيقات، والمشاركة في العطاء الإنساني.

4. عدم التحقُّق بضرورات المثلث التأسيسي للفعل الحضاري الإسلامي: التسخير، الاستخلاف، الاستعمار (بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية):

إن حيثيات المشروع الحضاري وتأسيساته قائمةٌ بين أيدينا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بكل مفرداتها، وليس علينا سوى أن نستفرغ الجهد في إدراكها والتحقّق بمطالبها، من أجل استعادة دورنا الضائع في العالم. فنحن أمة سُخّر لنا هذا العالم الذي استخلفنا عليه، لكي نبنيه ونعمره من أجل أن يكون البيئة الملائمة لعبادة الله، ليس بالمفهوم الطقوسي أو الشعائري، وانما بالمفهوم الحضاري؛ إذ تصير كل فاعلية يُبتغى بها وجه الله سبحانه وتعالى، عبادةً وصلاةً وصياماً. فمهمّة المفكر تقع في صميم الوجود الإنساني في هذه الحياة؛ إذ سيمثل الربط بين إنسانية المفكر، وثقافة الإنسان عاملاً مهماً في التمكين الفطري لدور المفكر في مجتمعه؛ فالإنسان في المنظور التوحيدي مأمور بأن يعمّر الأرض، ويحقق مفهوم الاستخلاف؛ إذ من خلال هذا المفهوم تتأصل فكرة الصلة بين الإنسان والمجتمع. ولأن مهمة الإنسان في هذا الكون متعلقة بقضية العمران، فإن مهمة المفكر بالضرورة متسقة مع هذا التعالق؛ إذ يغدو عاملاً فاعلاً في مجتمعه.

وبالعودة إلى سنن الله الاجتماعية؛ فإن سُنّة الاستخلاف تتأطر بمدى القيام بواجبات الإنسان تجاه خالقه، من عدم الفساد والإفساد (بجميع صوره وتجلياته)؛ وهذا ماثل في معظم من ذكرهم القرآن الكريم من أقوام ودول وحضارات هلكت مثل: قوم نوح وعاد وثمود إلخ. وسنن الله لا تحابي أحداً، فمن حاد عن المنهج القويم، ستُطبق عليه السُّنن ولو بعد حين. لذلك نتلمس بصورة واضحة نظرية الاستبدال كما وردت في القرآن الكريم؛ إذ هي مرتبطة –سببياً– بمدى قيام الحضارات والأقوام بواجباتها الاستخلافية تجاه الخالق والخلق والمخلوق؛ فثمة من أُخذ بسبب فساد البيئة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: 41]؛ وقمة طغيان ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: 6-14]. وتتنوع صور الإفساد وصور نتائجها بشكل لافت في القرآن الكريم، عبرةً لمن سيأتي بعدهم إلى يوم الدين.

وتحتاج سُنة الاستخلاف والتسخير والتعمير إلى إعمال النظر العلمي والعملي في اكتسابها من لدن المفكرين؛ فقد مكّن القرآن الكريم العقل البشري من تفحّص آياته الكونية المتنوعة ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية: 17-20] والاجتماعية ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾ [الروم: 22] والنفسية ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: 54] إلخ من آيات الله. وأبرز لنا القرآن الكريم دلالات لفظية تعيننا في فهم الاستخلاف والتسخير والتعمير، مثل: سخّر، سيروا، أفلا ينظرون، أفلا يتفكرون إلخ. بوصفها قرائن يمكن من خلالها أن يكوّن الإنسان تصوّراً حول منهجية التعامل مع الكون. وفي تعليق للبوطي على مفهوم التسخير يقول: "فجملة ما يقرره القرآن عن الكون أنه خادم أمين مسخّر للإنسان يستفيد منه الإنسان بمقدار ما يتأمل فيه ويستبطن ظواهره، و"كلمة التسخير" من أقوى التعابير في الدلالالة على الخدمة المستقرة الدائبة، وعلى الإنسان أن يستفيد منه ويسخره لصلاحه في المعاش والمعاد الأخروي."[2]

إنَّ آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ وتعاليمه أرست جملةً من القيم المنهجية وآيات العمل التي هيأت المناخ الملائم للفعل الحضاري، ومن بين تلك القيم والآليات: المعرفة هي حجر الزاوية؛ والنزوع إلى الأمام؛ والتحذير من هدر الطاقة؛ والتحفيز على العمل والإبداع؛ ومجابهة التخريب والإفساد؛ والتوازن بين الأضداد والثنائيات وتوحّدها؛ والتناغم والوفاق مع الطبيعة والعالم والكون؛ وتحرير الإنسان والجماعات والشعوب كافة من الكوابت وصيغ القهر والاستعباد.

---

[2] البوطي، محمد سعيد رمضان. **من روائع القرآن**، دمشق: مكتبة الفارابي، 1962م، ص62.

ولعل عدم الوعي بأهمية ثلاثية (الاستخلاف والتسخير والاستعمار) قد عطّل العقل المسلم من أن يقوم بواجبه تجاه ذاته أوّلاً فأدّى إلى خلل في بناء الفرد والأسرة والمجتمع والأمة، فلم يتمكن من صوغ رؤية واضحة لبناء الشخصية الإسلامية في جميع جوانبها: العقلية والنفسية والسلوكية والجسمية؛ وتجاه الإنسانية من المشاركة في بنائها بالصورة التي مثّلتها الحضارة العربية الإسلامية في القرون المنصرمة. فلم يعد قادراً على السعي والاكتشاف، بل غدا عقلاً كلّاً على مولاه. ولم يأخذ بأسباب العلم والحضارة، مما جعله مستقبِلاً لكي ما يرد إليه من معطى الآخر.

5. عدم تفعيل الفِقه المقاصدي المنضبط بأصوله العقدية والتشريعية، والاكتفاء، في الأعم الأغلب، بفِقه القضايا والنوازل:

لا ريب في أن الفقه المقاصدي من مثل فِقه المصالح المرسلة، ودرء المفاسد، وفِقه الموازنات، وفِقه الأولويات، وفِقه الواقع ومطالبه الضاغطة، والفِقه الحضاري... إلخ ليمثل في الحقيقة السقف الأعلى لمعطياتنا الفقهية التي تسعى لتنزيل كلمة الله وتعاليمه (جلّ في علاه) إلى مياوماتنا وممارساتنا ومؤسساتنا وأنشطتنا كافة، لحظةً بلحظة ويوماً بيوم، وتستجيب للتحديات التي تجابه الأمة الإسلامية صباح مساء؛ إذ تضع النقاط على الحروف، وترسم معالم الطريق.

إن الخبرة المعرفية بالواقع هي التي تتيح للمفكرين (على اختلاف تخصصاتهم) قدراً من تناول النصوص بصورة مقاصدية، مع حرصنا على أن يكون المفكر قد استكمل عدّته الإسلامية: المعرفية والعلمية التي تؤهله للتعامل مع النص والواقع (بتجلياته المختلفة). فيتجاوز حدود الزمان والمكان ليستكنه معطيات النص الممتد، فيستحضره ليحاور الواقع، ويدرك قوانينه بناء عليه. ويعطينا ابن خلدون مثالاً ناصعاً في منهجية التعامل مع النص وفق الفقه المقاصدي وتوجيهات الشرع العليا، وليس بناء على ما أورده بعض العلماء والفقهاء من عصره وعصر من سبقه. فهو يناقش صفة القرشية في الحاكم، التي كانت جزءاً أساسياً من منظومة الأحكام السلطانية في تلكم المرحلة بوصفها شرطاً للحاكم. فكان النظر المقاصدي الخلدوني بأن القرشية معادل موضوعي للعصبية، وليست

صفة كامنة في شخص الحاكم. وابن خلدون بهذا التصوّر أقرب إلى الروح القرآنية التي ركزت على التقوى والكفاءة، لا النسب والحسب. وهذا التكامل بين النظر في النص وفهم الواقع هو الذي حرّك عجلة العلوم في الحضارة العربية الإسلامية، وأسهم في تعميق منهج النظر المتسق بالعمل، فكل نظر لا بد له من عمل يكشف عنه.

6. عدم الالتفات إلى دور (السلوك) في نشاطنا الدعوي:

ذلك الذي فتحنا به نصف العالم، والآن فإننا نخسر الكثير بسبب التواءات سلوكنا، وازدواجيته، وتشدّده، واستفزازيته للآخر، سواء في ديارنا أم في ساحات الغرب.

إن تأثيرات السلوك، بما في ذلك من صدقٍ وإخلاصٍ ووفاء وسماحة وتفانٍ وبذلٍ وإيثار... الخ تمارس دوراً مدهشاً في كسب الآخرين إلى هذا الدِّين، وتقبّله بصدرٍ رحبٍ، والاندفاع في تلبية مطالبه؛ إنه ينطوي على بُعد حضاري هو في بدء التحليل ونهايته نقيض للتخلُّف والأعرابيّة والتعامل المنفّر الذي طالما مارسه بعض دعاة هذا الدِّين في الساحات الغربية، فتولدت نتيجة سلوكهم الملتوي ردود أفعال راحت تتزايد مع الأيام، وبدلاً من تقبّل تعاليم هذا الدِّين واحتضان المنتمين إليه من الأوروبيين، أخذ هؤلاء يشكلون الأحزاب والجمعيات التي تدعو إلى طردهم وعدم قبول اللاجئين منهم، وإلى رسم الصور الكريهة التي تُصوّر هذا الدِّين ونبيه (عليه أفضل الصلاة والسلام) على غير حقيقتهما، وعلى تضييق الخناق علي المسلمين في ممارساتهم، وملاحقة المتحجبات منهم ورفض قبولهم في المدارس والجامعات والمؤسسات.

إن هذه الممارسات السلبية كافةً تنصب الأسلاك الشائكة وتضع الحواجز بين المسلم والغربي، وتصدّ الأخير عن الاستجابة، بل عن محاولة التعرُّف على مطالب هذا الدِّين.

لقد أبرز بعض مفكري الإسلام في العصر الحديث أهمية السلوك في التعبير عن كُنه الإسلام. وإذا جاز لنا التعبير عن السلوك بمفردتين، فربما نعبّر عنه بالأخلاق والقيم. ولو أردنا أن نتحدث عن هاتين المفردتين لما اتسع المقام لهما، فثمة كتابات كثيرة جداً تحدثت عنهما وفي سياقات متنوعة ومتعددة. ولكن نضرب مثالاً على التحدّي الذي قَبِله

الدكتور محمد عبد الله دراز، بأن يُبرز مكانة الأخلاق في القرآن الكريم؛ فكتب رسالته للدكتوراه المعنونة بـ"دستور الأخلاق في القرآن". والهدف العام من دارسة دراز، هو الكشف عن الطابع العام للأخلاق النظرية والعملية في القرآن الكريم؛ وأبرز فيها مكانة الأخلاق في القرآن ومن ثم في التفكير الإسلامي العام.

وما من شك في أن موضوع الأخلاق والقيم هو من الموضوعات التي تُيسّر سبل التواصل بين الأديان والشعوب، لما لنقاط الوصل من مساحة أكبر من مساحة الفصل. وما نفتقده اليوم هو في التكوين القيمي للمسلم المعاصر؛ إذ لا يكفي أن يقرأ الإنسان القرآن والسنة دون تفعيلهما في حياته الشخصية والعامة. ولعل السيدة عائشة رضي الله عنها رسمت ملمحاً دقيقاً في بضع كلمات تختزل المسلم كما ينبغي أن يكون، فعندما سُئلت عن خُلُق الرسول صلى الله عليه وسلم، أجابت: "كان خُلقه القرآن". لذلك ينبغي أن يركز المفكر خاصة في ظل الأزمات على كيفية بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة من جميع جوانبها، بحيث تتكوّن عند هذه الشخصية معالم الترابط بين النظر والعمل، والفكر والوجدان والسلوك.

ونتمثل في هذا السياق الدلالة العميقة والإيجابية لمفهوم "القدوة" أو "الأسوة"، التي تتأطر فلسفتها في نقل ما هو بالقوة (التعاليم السامية) إلى ما هو بالفعل (السلوك الإيجابي). ومن هنا كشف لنا القرآن الكريم عن جوانب متعددة للأنبياء توضح الصنع الرباني لهم، وتشكيلهم ليكونوا قدوة ونماذج في المجتمع، (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)؛ سواء أظهر هذا في المحاورات الثنائية بين الأنبياء وأقوامهم أم بين الأنبياء والله عزّ وجل؛ فذا مثلٌ يضربه الله على تقديم الجانب العقدي على العِرق والنسل ليكون الانتماء المجتمعي تجاه دائرة واحدة تحقق العدل والمساواة، لا مساحة ذاتية شخصية تتفاوت فيها قيمة الفرد حسب نسبه وحسبه؛ فالله تعالى يرسم لنوح عليه السلام الإطار العام للقدوة من خلال تعامله مع أهل بيته فترة الأزمات: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: 45-46]. ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بمقولته الخالدة: (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتها يدها). وفي الوقت ذاته نجد القرآن الكريم يرسم صورة أخرى للانفصام بين الداخل والخارج؛ أي بين قراءة التعاليم السامية وعدم تطبيقها؛ فهو يصف بني

إسرائيل بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: 44]، مما يجعلهم نموذجاً سلبياً في الاقتداء والاهتداء.

7. عدم تحفيز طاقاتنا في وتائرها العليا:

إن علينا أن نعمل، ونواصل العمل في أقصى وتائره: "العقل في أقصى حدود الاحتمال" إذا استعملنا عبارة الكاتب الإنجليزي: (هـ. ج. ولز) دون أن ننتظر نتائج حصادنا في الدنيا، فحتى رسول الله ﷺ لم يطلب منه ذلك: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: 77]. وهذا يعطينا الحافز لعدم اليأس والاستسلام والقعود، وللتشمير عن ساعد الجدّ بانتظار الثمار الخصبة الواعدة يوم الحساب.

إن الإنسان المسلم هو مشروع دائم للصعود إلى أعلى عبر محطات (الإسلام فالإيمان فالتقوى فالإحسان)؛ هنالك حيث يؤدى كل عمل بأقصى وتائر الإبداع والإحسان، وحيث تصير العبادة الإسلامية مشروعاً حضارياً وليس مجرد وظيفة طقوسية أو شعائرية. إننا مغلوبون حضارياً، والفارق بيننا وبين الغرب المتفوق يزداد بحسابات الكم والنوع، سنةً بعد أخرى وعقداً بعد عقد، واللحاق بالآخر أو مقاربته على الأقل، ليس بالأماني والأحلام، وإنما هو في جوهره جهد مكثف، وإنجاز متواصل، وسعي جاد يعرف كيف يتعامل مع الزمن وكيف يمزج الليل بالنهار. وما لم نتحقق بهذه الوتائر العليا من الإنجاز، الذي ينطوي على الإحسان والإتقان والإبداع، فإن ألف سنة من التعبّد المنفصل عن الحياة، المجرّد عن الفاعلية والدفع والإنجاز، وألف ندوة أو محاضرة أو مؤتمر يعقد هنا أو هناك، لن تتقدم بنا خطوةً واحدةً باتجاه تقليص المسافة بيننا وبين الآخر.

إن (مايكل هارث) الباحث الأمريكي أمضى سنوات طوالاً في تأليف كتابه (المائة الأوائل) بحثاً عن أكثر مائة شخصية عالمية تأثيراً في التاريخ؛ أي فاعلية وإنجازاً، وقد خلص من خلال اعتماده معياراً صارماً في انتقاء شخصياته يقوم على مقدار العمل والإنجاز. ثم مضى خطوةً أخرى لاختيار أعظمها على الإطلاق بالمعيار نفسه، فما وجد غير شخصية الرسول محمد بن عبد الله ﷺ فوضعه في قمة هؤلاء المائة محتلاً المركز الأول دون منافس على الإطلاق.

وبناء عليه فمن الأهمية بمكان أن يتمثل المفكر والمؤسسة الفكرية مشروعاً ممتداً؛ إذ يُعبّر المشروع عن قدرة علمية قائمة على التخطيط والتنفيذ والتقويم؛ فضلاً عن التفكير الاستشرافي الذي تفتقده معظم حركات الإصلاح للأسف الشديد، فتأتي نتائج هذا المشروع وهذه الرؤية متسقة –بدرجات متفاوتة– مع المقدمات العلمية، مما ينقل الفعل الإصلاحي من أن يكون ردّة فعل لما يحدث في الحاضر إلى أن يكون مشاركاً في صنع هذا الحاضر والمستقبل كذلك.

وفي مجال العمل الفكري –مناط خطابنا– ينبغي لخطابنا أن يحقق هذه الوتائر العليا بالابتعاد عن ما يُسمى بالأُحجيات اللغوية التي يتّبعها بعض المفكرين؛ إذ يبدو خطابهم عمليات ذهنية وألعاباً لغوية فحسب، فيغدو منفصلاً عن الواقع ولا يُحقق إنجازاً يُذكر. وبناء عليه ستنشأ ثقافة وخطاب منفصل عن خطاب المجتمع، فيعمل على (الاستقالة الجماعية للمجتمع) ونشوء ما سمّاه الجاحظ بـ (عقلية العوام) مقابل عقلية الخاصة.

إنّ مسؤولية المفكرين في تأسيس قاعدة التكيّف الإبداعي والإبداع في حركة التفكير والممارسة والسلوك، واستنفار طاقات الإنسان المسلم؛ النفسية والعقلية والبدنية، هي مسؤولية حضارية؛ إذ يُساعده هذا التكوين والاستنفار في القيام بمهام الاستخلاف والتعمير القائم على قدرة الإنسان في إحداث الأداء الأحسن في هذا الكون وبالصورة التي تنسجم مع توجيهات النص الصحيح والعقل الصريح والفطرة السليمة، وإلى دفن المحاكاة من جهة ومواكبة التغيّر من جهة أخرى. والقدرة الإبداعية –والاجتهاد جزء منها– هي سبيلنا في قراءة الكون والنظر الغقلي فيه وفي النفس، واستقراء حركة التاريخ وسنن الله المتنوعة، ومن ثمّ الإسهام –بإتقان وإحسان– في ترشيد النشاط البشري، وبناء الإنسانية على الوجه القويم.

ولتحقيق هذه الوتائر العليا –ضمن قاعدة الإبداع– يحتاج فكرنا الإصلاحي إلى أن يمارس عمله في مساحة منضبطة من الحرية (الداخلية والخارجية)، وإلى المرونة في التفكير بتنويع زاوية النظر وعدم التشدد في الرأي، وإلى الاتساقية بين عالم الأفكار والأشخاص والأشياء، وإلى التفكير الناقد والتقويم الحقيقي لكل خطوة من خطوات التخطيط

والعمل. وبهذا نساعد الشخصية الإسلامية المعاصرة على الارتقاء بقدرتها التفكيرية في أعلى صور التفكير الحر المنضبط.

8. سوء التصّرف بالفرص الفاعلة التي منحنا إياها هذا الدين: كمؤسسة الوقف، والتكافل الاجتماعي، وخطبة الجمعة، والحج... إلخ.

منحنا الإسلام مظاهر وتجليات ومؤسسات وهياكل مجتمعية ذات قيمة بنائية للإنسان وللمسلم خاصة، وهي متصلة بكل النواحي والنشاطات؛ فثمة ما هو متصل بالاقتصاد مثل الوقف والزكاة، وبالسياسة مثل الشورى، وبالعلاقات الاجتماعية مثل الزواج والطلاق، وبالفكر مثل الحرية والتفكير الناقد، إلخ. ولا يتسع المقام للحديث عنها، ولعلنا نتطرق بعجالة إلى مؤسسة مهمة من هذه المؤسسات، وهي مؤسسة الوقف على سبيل التمثيل لا الاستقراء والتفحّص الكلي.

إن فلسفة الإسلام في التنمية الاجتماعية وفي التكافل الاجتماعي قائمة على مقاصد الشرع في إحداث السعادة البشرية، وفي تحقيق معنى الإنسانية في أعلى صورها. وقد فعلت مؤسسة الوقف الأفاعيل في تاريخنا وواقعنا المعاصر: عمرانياً واجتماعياً وثقافياً وعلمياً وتربوياً...؛ إذ كان لها دور فاعل في مساندة الدولة بأن تشاركها العبء المادي في التكافل الاجتماعي بكل صوره، وفي تحريك دفة الاقتصاد من خلال العاملين في المؤسسات الوقفية، ومن ثمّ الحد من البطالة، إلخ. والأمثلة التطبيقية على الوقف أكثر من أن تُحصر. ومما ساعد على تطوّر حركة الوقف أن الوقف أصبح ثقافة مجتمعية يمارسها العامة والخاصة، ولا أدلَّ على هذا من أن تحتفي مؤسسة الخلافة لا سيما في العصرين الأيوبي والعثماني بهذا النوع من التكافل المجتمعي؛ فنشطت الحركة العلمية والثقافية، وكانت المدارس والمعاهد المنتشرة في مصر والشام خاصة تُموّل من هذه الأوقاف، ومن أشهر المدارس الوقفية: المدرسة النظامية والمدرسة الصلاحية؛ إذ كانت تتكفل بكامل نفقات الطلبة. حتى وصل الأمر بالأوقاف أن ساعدت "في تزويج الأيامى والأبكار اليتيمات، وتخصيص الرواتب الشهرية للشيوخ والضعفاء وإنارة الطرقات للناس ليلاً، كما وجد من الأوقاف ما كان مخصصاً للإنفاق على الأمهات الفقيرات لإمدادهن بما

يحتجن، وعلى المساجين؛ تخفيفاً عليهم في سجنهم والإحسان إليهم وعلى الخدم تعويضاً لهم عما يتلفون أثناء قيامهم بعملهم."[3] وهذه النماذج العليا في تاريخنا الحضاري تستدعي من مفكرينا تجديد الوعي بأهمية الوقف والمؤسسات الوقفية في إحداث الانسجام المجتمعي والسلم والأمن الاجتماعي، وإلى الوعي كذلك بأن الخلل البنيوي الذي أصاب بعض المجتمعات والدول كان من أهم صوره أن تخلت الدول والمجتمعات عن هذا النمط الحضاري، متكئين على تبريرات واهية، ومتلمسين الفردانية المطلقة التي أسهمت في تفكك المجتمعات.

ولعل هذا الاحتفاء الكبير بالوقف ومؤسساته في الحضارة الإسلامية نابع من المقاصد العليا للشريعة التي ركّزت على الضروريات والحاجيات والتحسينات. وفي كل صورة من صور الضروريات، ثمة بصمة للوقف نستطيع أن نسكنه فيها، في مجال المحافظة على النفس والدين والعقل والنسل والمال. ولعلنا نخصص عدداً قادماً إن شاء الله للحديث عن هذه النقطة المهمة.

[3] بن خوجة، محمد الحبيب. **لمحة عن الوقف والتنمية في الماضي والحاضر**، لندن، سلسلة الحوار بين المسلمين، 1996م، ص35-36.